خطبة صلاة الجمعة 6/ 9/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أبناؤنا في الاغتراب)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1]، قال ابن كثير: يهدي إلى الرشد أي يهدي إلى السداد والنجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10]، قال المفسرون: معنى قوله: هيئ لنا من أمرنا رشداً: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَشَد والرُشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الرابعة في سلسلة (**دليل إرشادي**)، تتناول كلُّ خطبةٍ منها مشكلةً اجتماعيةً أسريةً أو ماليةً أو أخلاقيةً وقع فيها عدد منا، وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتقدم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى تعينه على تبصر طرق الحل، وتمكنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزة تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة؛ لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: أبناؤنا في الاغتراب

المسألة: اضطررنا للسفر أنا وزوجي وأبنائي الأربعة، كان أبنائي في الشام من أهل المساجد ودورات القرآن، وقد أُلقي عليهم جلباب الحياء، والآن بعد عيشنا في هذا البلد الأوربي ثماني سنوات تغير الأبناء، فابني الأكبر قد بلغ العشرين وهو مستقل بنفسه منذ سنوات يغدو ويروح كيف يشاء، وبنتي ذات الأربعة عشر ربيعاً تركت مصحفها وصلاتها وفي ذهنها كثير من التساؤلات حول الدين والحياة، بينما لا زلنا محافظين على الصغيرين إلى الآن.

فأرجو إرشادنا – أنا وزوجي- إلى الطريقة الأمثل للتعامل مع أبنائنا؛ لكي لا نخسرَهم في الدنيا أو في الآخرة، علما أننا لا نستطيع ترك البلد الذي نعيش فيه.

الدليل الإرشادي:

في الدليل أربع فقرات: حكم الإقامة في بلد غير إسلامي، كلمات السر الأربعة في تربية الأبناء، تحدث طويلا إلى أبنائك، عجّل بزواج أبنائك وبناتك.

أولاً: حكم الإقامة في بلد غير إسلامي:

يقصد بالبلد الإسلامي كلُّ بلد غالب سكانه من المسلمين وتظهر فيه أحكام الشريعة الإسلامية، وعكسه البلد غير الإسلامي؛ المسلمون فيه قلة أو لا تظهر فيه أحكام الشريعة الإسلامية.

والسؤال: ما حكم إقامة المسلم إقامة دائمة أو شبهَ دائمة في بلد غير إسلامي؟!.

الجواب: ذهب المالكية وابن حزم الظاهري إلى أنه لا يجوز إقامة المسلم في غير دار المسلمين سواء خشي الفتنة أم لم يخشها، مستدلين بحديث مرسل أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما: «**أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يقيمُ بين أَظهُرِ المشركين**» فبراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم منه تقتضي حرمة هذه الإقامة.

وذهب الجمهور وهم الحنفية والشافعية والحنابلة إلى إباحة الإقامة للقادر على إظهار دينه وتتوفر له الحماية، ودليلهم: أن النبي صلى الله عليه وسلم أذِن لقوم أسلموا بمكة أن يقيموا فيها بعد إسلامهم، منهم العباس عمه ولم يطلب منه الهجرة إلى المدينة. واستدلوا بإسلام النجاشي وبقائه في قومه وقوله

صلى الله عليه وسلم عند موت النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» [البخاري]، واستدلوا بهجرة المسلمين إلى الحبشة وإقامتهم فيها ولم تكن بلداً إسلامياً يومها.

وتأول الجمهور حديث البراءة من المسلم المقيم بين المشركين -لو صح- بعدم الأمن على الدين.

هذان هما قولا العلماء في مسألة الإقامة في بلد غير إسلامي، والخلاف بينهم في المسلم الآمن على نفسه ودينه، أما غيرُ الآمن فقد اتفق الجميع على حرمة إقامته في ذلك البلد وأنه يجب عليه الفرارُ بدينه ونفسه إلى بلد يأمن فيه.

ومع كل ما تقدم فجمهور العلماء يستحبون للمرء أن يقيم في ديار المسلمين حفاظاً على أخلاقه وأخلاق ولده وزوجه، مالم يكن مضطراً أو راجياً بإقامته في ديار غير المسلمين إسلامهم على يديه وإعلاء كلمة الله تعالى في أرضهم.

ومن هنا قرر المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث في مسألة الإقامة في غير البلاد الإسلامية الآتي:

"متى وُجِدَ الأمن للمسلم على نفسه ودينه في بقعة من الأرض ينال بها حقوقه التي تمكنه من ممارسة شعائر دينه دون إضرار به فإقامته في تلك البقعة تتردد بين الجواز والاستحباب والوجوب حسب مقتضيات الحال".

وبناء على ما سبق: فمن لم يجد الأمن على نفسه أو أنفسِ من يعول أو على دينه ودينهم في بقعة من الأرض وجب عليه الخروج منها إلى غيرها أو يسن بحسب تحقق الضرر أو خشيته.

ثانياً: كلمات السر الأربعة في تربية الأبناء:

عقدنا قبل ثلاثة أعوام سلسلة خطب عن تربية الأبناء أفدت فيها من مائة كتاب عربي وغربي في التربية، ووصلت في خاتمة السلسلة إلى القول: إن كلمات السر الأربعة في صلاح الأبناء هي: اللجأ إلى الله والحب والقدوة الحسنة والصحبة الصالحة، وهذه الأربعة وإن كانت مهمةً جداً للمقيمين فإنها أكثر أهمية للمغتربين.

اغمر أبناءك بالحب والاحترام، ضمّهم، قبلهم، ادع الله لهم بالليل والنهار، استمع لآرائهم وهمومهم وآمالهم، اقضِ كثيراً من الأوقات معهم، ضاحكهم ومازحهم والعب معهم واحزن لهم ومعهم.

ومهما أردت من أبنائك الالتزام بأمر فكن أنت أول الملتزمين به، ومهما أردتم منهم الابتعاد عن أمر فكن أول المبتعدين عنه؛ لأن عيونهم معقودة بك يعملون ما تعمل ويتركون ما تترك.

مشى الطاووسُ يوماً باعوجاجٍ فقلّد شكلَ مشيتِهِ بنوهُ

فقال: علام تختالون؟ قـالوا: بدأتَ به ونحنُ مقلدوهُ

فخالفْ سيرَك المعوجَّ واعدلْ فإنّا إنْ عدلتَ معدلوهُ

أما تدري أبانا كلُّ فرعٍ يجاري بالخطا من أدبوه؟

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منا على ما كان عوَّدهُ أبوهُ

واختر سكناً قريباً من مركز إسلامي أو مسجد أو مدرسة إسلامية، ولو تحمّلت نفقة إضافية أو وقتاً إضافياً أو جهداً إضافياً؛ ليجد أبناؤك في المركز الإسلامي والمدرسة الإسلامية والمسجد أصحاب خير يعينونهم على البر وينهونهم عن الإثم، واجتهد أن تسافر مع أهلك إلى العمرة والحج كلما أُتيح لك ذلك أو أن تزور بلدك.

ثالثاً: تحدث طويلا إلى أبنائك:

تحدث معهم عن دينهم وعن محاسن الشريعة، أخبرهم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وقصص صحابته، ذكّرهم أنه ينتمون لأمة ضاربةٍ جذورُها في الأرض وارفةٍ ظلالُها في السماء.

ولئن كانوا يرون في المسلمين من لا يمشي على هدي الشريعة فإن الخطأ في الأشخاص لا في الرسالة.

علّم ابنك الاعتزاز بإنسانيته ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] والاعتزاز بدينه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] والاعتزاز بلغته العربية والاعتزاز بهويته الأخلاقية، فهو يعرف الإجابة على أسئلة الحياة التي أعيت فلاسفة الأرض: من أنا؟، ولماذا جئت؟، وإلى أين أمضي؟، وهو يتكلم لغة القرآن.

حدّث أبناءك عن أخطاءِ الغرب وتفسّخِ قيمهم، حدّثهم عن التفكّك الأسري، وعن تفشي الجريمة، وعن نشر حكوماتهم للحروب في البلاد البعيدة، وعن الانحلال الخُلقي عندهم، وعن استعباد المال والشهوة للإنسان.

علّمهم النقد العلمي بأدب وجرأة، ودرّبهم على أن يُقَوّموا ما يرون أو يسمعون، وحدثهم عن الدعوة إلى الإسلام بين أقرانهم وأصحابهم، وأخبرهم عن نماذج إيجابية فيمن نجح في الدعوة إلى الله في الغرب.

واستمع إلى حديث أبنائك وأجب على ما تعرف من أسئلتهم واذهبا معاً إلى أحدِ الدعاة أو المساجد أو إلى مركز إسلامي ليجيبكم على ما لا تعرفون.

ويمكنك القراءة في كتب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وكتب راغب السرجاني ومحمد عمارة ومحمد الغزالي ومصطفى محمود للرد على تساؤلات أبنائك الإيمانية.

رابعاً: عجّل بزواج أبنائك وبناتك:

لتلبي لهم حاجاتهم الفطرية، وتحميَهم من الانحراف والوقوع في الفساد، وتبعدَهم بذلك عن الحرام.

ختاماً – أيها الإخوة:

نقول للأخت صاحبةِ المسألة وأمثالِها: أطيلوا الجلوس مع أبنائكم والحديثَ إليهم ومشاركتَهم فيما يرغبون ويشتهون واغمروهم بالحب والعاطفة، واجهدوا أن يكون لكل منهم صاحب صالح خيّر، وكوني مع زوجك قدوة صالحة لهم، وأسرعوا بتزويج ابن العشرين ما استطعتم، وأكثروا من الدعاء بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

وبعد كل هذا؛ إذا لم تستطيعوا الحفاظ على دين أبنائكم فانتقلوا إلى بلد إسلامي تختارونه ولا تخافوا الفقر فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: 100]، أي يجد بلاداً كثيرة ليهاجر إليها ويتحول، ويجد سعة أي في الرزق. **والله أعلم**.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

والحمد لله رب العالمين